جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي

معهد العلوم الإسلامية

قسم الشريعة

محاضرات في مقياس اللغة العربية

(قراءة في كتب أدبية)

سنة ثانية ماستر

تخصص فقه مقارن وأصوله، معاملات مالية معاصرة، شريعة وقانون

الدكتور علي زواري أحمد

الموسم الجامعي: 1442هـ-1443هـ/2020م-2021م

مدخل لمصادر اللغة والأدب العربي

تمهيد:

برنامجنا لهذا السداسي يتضمن قراءة في بعض الكتب اللغوية والأدبية، منها البيان والتبيين لعمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، والكامل في اللغة والأدب لمحمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: 285هـ)، ونهج البلاغة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولهذا علينا بداية أن نفرق بين ثلاثة أشياء، قراءة في كتاب، وقراءة الكتاب، وتلخيص الكتاب.

أولا – القراءة في كتاب: يراد بها تعريف بالكتاب، بمعنى معرفة مؤلف الكتاب، ومنهجه وأسلوبه في الكتاب، وأهمية الكتاب، ودوافع تأليفه، ودراسة عنوان الكتاب، ومدى تطابق العنوان مع مضمون الكتاب، والمآخذ على الكتاب.. وما شابه ذلك.

ثانيا – قراءة الكتاب: وهو قراءة المادة العلمية الموجودة في الكتاب، من أول الكتاب حتى نهايته، وهذه المادة العلمية تتمثل في كيفية عرض الكاتب لتلك المادة والتسلسل بها من المقدمة حتى الخاتمة، ومدى استفادة القارئ منها.

ثالثا – تلخيص الكتاب: وهو الصورة المصغرة للكتاب؛ بحيث يكون التركيز فيها عن أهم المضامين والأفكار التي جاء ذكرها في الكتاب مرتبة حسب منهج الكاتب في عرضه للمادة العلمية، وبالتالي يحوصل لنا أهم ما جاء فيه.

أهمية القراءة في كتاب

تكمن أهمية القراءة في الكتب اللغوية والأدبية فيما يلي:

- **تزود القارئ بثروة لغوية تمكنه من الأداء اللغوي السليم في الكلام والكتابة.**
- **تعلم القارئ حسن التركيب بحيث يوظف كل شيء في مكانه (القواعد والألفاظ).**
- **تدرب القارئ على جودة الأسلوب فيجمع بين إيجاز اللفظ وكثافة المعنى.**
- **اكتساب القارئ للمعلومات من مصادرها الأصلية.**
- **تجعل القارئ على بصير بالمؤلفات التراثية ومعرفة دوافع تأليفها ومضامينها والاستفادة بتوظيفها في مضانها.**

أهم المصادر اللغوية والأدبية القديمة

المصادر اللغوية والأدبية متنوعة ومختلفة وإن اشتركت أحيانا في المادة العلمية، لكنها عند التصنيف تختلف، ولهذا نقف على بعض تصنيفات الكتب الأدبية واللغوية:

أولا - المصادر اللغوية والمعجمية:

هناك الكثير من المصادر اللغوية والمعجمية المتعلقة باللغة والأدب العربي يرجع إليها الباحث ويجعلها عمدته في أخذ مادته العلمية، منها على سبيل الذكر:

معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، معجم لسان العرب لمحمد بن منظور، أساس البلاغة لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، فقة اللغة وسر العربية لأبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، مفتاح العلوم للسكاكي، الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، الكتاب لأبي البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه..وغيرها.

ثانيا - المصادر الشعرية:

المفضليات للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي، الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الله بن علي الأصمعي، طبقات الشعراء لابن المعتز، جمهرة أشعار العرب لابن دريد القرشي، طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحي، قواعد الشعر لثعلب بن يحي أبي العباس..وغيرها.

ثالثا - المصادر الأدبية

الكامل في اللغة والأدب للمبرد محمد بن يزيد أبي العباس، البيان والتبيين لعمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، العقد الفريد لابن عبد ربه، جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكر، و مجمع الأمثال للميداني، وأمثال العرب للمفضل الضبي، وغيرها من المصادر الأدبية.

رابعا - المصادر النقدية

الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبقات الشعراء لابن المعتز، العمدة لابن رشيق، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، الصناعتين لأبي هلال العسكري، يتيمة الدهر للثعالبي نقد الشعر لقدامة بن جعفر البغدادي، الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحي الآمدي.

بعض المؤلفات في المصادر الأدبية واللغوية

هناك بعض المؤلفات اعتنت بالتعريف بالمصادر الأدبية واللغوية، سواء بالذكر أو التصنيف، أو التتبع التاريخي، أو التعريف بتلك المصادر.. نذكر منها.

- **المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي د. عز الدين إسماعيل عبد الغني.**
- **نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، د. أمجد الطرابلسي.**
- **المكتبة العربية دراسة لأمهات الكتب في الثقافة العربية د. عزة حسن.**
- **المدخل إلى مصادر اللغة العربية د. سعيد حسن بحيري.**
- **دراسة في مصادر الأدب د. طاهر أحمد مكي.**
- **مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم د. عمر الدقاق.**
- **مصادر اللغة في المكتبة العربية، د. عبد اللطّيف الصوف.**
- **دراسة تحليلية في مصادر التراث العربي د. أنور محمود زناتي.**
- **من مصادر التراث العربي د. السعيد الورقي.**

قراءة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ

إن أول شيء يقف عنده الباحث في دراسته لأي كتاب هو أن يقف ولو بوقفة مختصرة عن صاحب الكتاب وحياته العلمية، حتى يكون بمثابة التمهيد وأخذ الصورة اللازمة التي رافقت الكتاب حتى خرج إلى العيان ليسهل بعد ذلك دراسته.

أولا - نبذة عن الجاحظ ومولده و نشأته

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري، المعتزلي، وكنيته أبو عثمان، وشهرته الجاحظ لنتوء في حدقتيه فلقب بالحدقي واشتهر في الآفاق بالجاحظ، ولد بالبصرة عام 160هـ 776م.

نشأ الجاحظ فقيرا ويتيما فحال ذلك دون تفرغه لطلب العلم رغم طلبه العلم مبكّرا، فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده، ثم صار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته، حتى قيل: لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، وبهذا أخذ جل ثقافة العرب واليونان والفرس التي عرفها عصره والتي جمعها بنفسه ووعاها.

ثم بعدها راح يروض قلمه، فكتب في بعض أبواب الأدب ونشر كتاباته منسوبة إلى أعلام الكتاب السابقين والمعاصرين له كابن المقفع وسهل بن هارون، ووجد في تقبل الناس لهذه الكتب المنسوبة إلى أولئك الكتاب علامة على امتلاكه ناصية الكتابة، فأصبح ينشر كتبه ورسائله معلنًا أنه مؤلفها، وكان من تلك الكتب المبكرة كتاب في الإمامة، قرأه المأمون، فاستدعاه ونصّبه رئيسًا لديوان الرسائل، لكنه استعفى من عمله هذا بعد ثلاثة أيام فأعفي، وقيل: كان الجاحظ ينوب عن إبراهيم بن العباس الصولي مدة في ديوان الرسائل.

وبعد وفاة المأمون لازم الجاحظ وزير المعتصم، محمد ابن عبد الملك الزيات. فعاش في كنفه رضي البال ينفق عن سعة، وينصرف إلى التأليف، ويرحل إن شاء، فرحل إلى دمشق وأنطاكية .. حتى أصبح من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين، كتاب الحيوان، البخلاء أشهر هذه الكتب، فقد كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء وغيرها.

كان الجاحظ لا يكترث بالمظاهر والشكليات والقشور، فرغم دمامة وجهه، وبشاعة منظره، فقد امتاز بخفة الروح وسرعة الخاطر، ويحمل نفسية متفائلة مستبشرة، فكان يتسقط الطرافة ومواطن الحكمة، ويتتبع النكتة، حتى لو انعقدت على نفسه، أطلقها ضحكة عريضة ساخرة، فقد روى عن نفسه ذات مرة، قائلا: ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني، وقيل: طلبه المتوكل، فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل، ولعاب سائل.

أصيب الجاحظ في أواخر عمره بمرض الفالج، فكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الأيسر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده، وعندما كان يوما جالسا في مكتبته يطالع بعض الكتب المحببة إليه, وقع عليه صف من الكتب أردته ميتاً، وكان ذلك سنة (255هـ) فمات مدفونا بالكتب,

مخلفاً وراءه كتباً ومقالات وأفكارا وآراء ما زالت خالدةً حتى الآن – ومنها كتاب البيان والتبيين – وبهذا اختتمت حياة رجل شاء القدر أن يكون موته طريفًا، كما كان طريفًا في حياته.

- البيئة السياسية والعلمية التي عاصرها الجاحظ

عاصر الجاحظ اثنا عشرة خليفة عباسياً بداية من المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ثم الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله، فهو من جهة عاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في ذروة ازدهارها، فأخذ علم اللغة العربية وآدابها على أبي عبيدة صاحب عيون الأخبار، والأصمعي الراوية المشهور صاحب الأصمعيات وأبي زيد الأنصاري، ودرس النحو على الأخفش، وعلم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري، والثقافات الفارسية اكتسبها من ابن المقفع وأبي عبيدة، واهتم باليونانية والهندية عن طريق قراءة أعمال مترجمة أو مناقشة المترجمين أنفسهم كحنين بن إسحق وسلمويه، كما توجه إلى بغداد، وفيها تميز وبرز، وتصدّر للتدريس، وتولّى ديوان الرسائل للخليفة المأمون .

ومن جهة أخرى شهد ما وصل إليه المعتزلة من مجد سياسي وثقافي في عصر المأمون ، يقول علي بن القاسم الأديب الخوافي حدثني بعض إخواني: " أنه دخل على عمرو بن محبوب الجاحظ فقال يا أبا عثمان كيف حالك فقال له الجاحظ سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحدا واحدا حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويؤاثر الخليفة الصلات إلي، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأجلس على ألين الطبري، وأتكئ على هذا الريش، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج، فقال له الرجل الفرج ما أنت فيه، قال بل أحب أن تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري ويختلف إلي فهذا هو الفرج" فلما دالت دولتهم . أي المعتزلة . في عصر المتوكل كان الجاحظ ما يزال كاتبا غزير الإنتاج.

فالبيئة التي عاصرها الجاحظ كان الصراع فيها على أشده بين أخلاط من الناس ينتمون إلى أجناس متعددة، وإلى عقائد متباينة ومتضاربة، فهذا اليهودي يجلس مجلس المسيحي، وهذان يجلسان إلى جانب المجوسي الدهري، فإذا جلس كل هؤلاء إلى المسلم فقد يكون هذا المسلم شيعيا زيديا معتدلا، أو شيعيا من الغلاة، أو يكون سنيا، فكانت بيئة ثقافية معقدة سيطر عليها عامة الناس لا السادة.

ففي هذه البيئة الثقافية التي كانت جديدة كل الجدة على المجتمع الإسلامي شق الجاحظ طريقه فكان يتميز بمقدرة عقلية تستوعب كل شيء، كما تميز بنهم شديد لكل نوع من أنواع العلم والمعرفة في عصره، ولهذا فإن أهم ما يميز كتابات الجاحظ مقدرته على عرض صور ونماذج من واقع الحياة الاجتماعية، ومن صنوف البشر على اختلاف طبائعهم، وهو في هذا يتميز عن الكتاب الذين شاركوه غزارة الثقافة، مثل المبرد وابن قتيبة وغيرهم.

يورد ياقوت الحموي قولاً لأبي هفَّان: «لم أر قطُّ ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنَّه لم يقع بيده كتاب قَطُّ إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ولا عَجَبَ إذ ذاك في أن يُفْرِد الصَّفحات الطِّوال مرَّات عدَّة في كتبه، للحديث عن فوائد الكتب وفضائلها ومحاسنها».

فكان أشبه بآلة مصوّرةٍ، فليس هناك شيءٌ يقرؤه إلاَّ ويرتسم في ذهنه، ويظلُّ في ذاكرته آماداً متطاوله، لهذا وصفه ابن يزداد بقوله: "هو نسيج وَحْدِهِ في جميع العلوم؛ علم الكلام، والأخبار، والفتيا، والعربيَّة، وتأويل القرآن، وأيَّام العرب، مع ما فيه من الفصاحة".

ومما أورده ياقوت الحموي قوله: «أبو عثمان الجاحظ، خطيبُ المسلمين، وشيخُ المتكلِّمين، ومَدْرَهُ المتقدمين والمتأخِّرين. إن تكلَّم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النَّظَّام في الجدال، وإن جدَّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هَزَلَ زاد على مزبد، حبيب القلوب، ومزاج الأرَّواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياضٌ زاهرةٌ، ورسائله أفنانٌ مثمرةٌ، ما نازعه منازعٌ إلا رشاه أنفاً، ولا تعرَّض له منقوصٌ إلا قدَّم له التَّواضع استبقاءً. الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصَّة تسلِّم له، والعامَّة تحبُّه. جَمَعَ بَيْنَ اللسان والقلم، وبَيْنَ الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشت حكمته، وظهرت خلَّته، ووطئ الرِّجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه.

- تصانيفه ومؤلفاته

تعتبر كتبه دائرة معارف لزمانه ، كتب في كل شيء تقريبًا؛ كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء والسلطان والجند والقضاة والولاة والمعلمين واللصوص والإمامة والحول والعور وصفات الله والقيان والهجاء.. فقد كتب حوالي 360 كتابًا في كل فروع المعرفة في عصره.

وهذه أهمهم تصانيف الجاحظ كما ذكرها البابانى في هدية العارفين: أخلاق الشطار. أخلاق الملوك. البيان والتبيين. تحصين الأموال. جوابات كتاب المعرفة. حانوت عطار. الرد على أصحاب الإلهام. الرد على المشبهة. رد النصارى. رسالة في الحسد. سحر البيان. سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف. عناصر الأدب. فضيلة المعتزلة. كتاب آي القرآن. كتاب الإبل. كتب الأخبار. كتاب الإخوان. كتاب الاستبداد والمشاورة في الحروب. كتب الاستطاعة. كتاب الأصنام. كتاب الاعتزال. كتاب الإمامة. كتاب الأمثال. كتاب الأمصار. كتاب الأنس والسكن. كتاب البخلاء. كتاب البغل. كتب البلدان. كتاب النبي والمتنبي. كتاب التربيع. كتاب التسوية بين العرب والعجم. كتاب التعبير. كتاب التفكر والاعتبار. كتاب الجواري. كتاب الحجر والفتوة. كتاب الحزم والجزم. كتاب الحيوان. كتاب الخطاب في التوحيد. كتاب الدلال. كتاب السلطان. كتاب السلوك. كتاب السودان. كتاب الشارب والمشروب. كتاب الصرحاء والهجناء. كتاب صناعة الكلام. كتاب الصولجان. كتاب الطبائع. كتاب الطفيليين. كتاب العثمانية. كتاب العرس والعرائس. كتاب الفتيان. كتاب الفخر بين عبد شمس وبني مخزوم. كتاب فخر القحطانية والعدنانية. كتاب اللصوص. كتاب المحاسن والأضداد. كتاب المزاح والجد. كتاب المعرفة. كتاب المعلمين. كتاب المغنين. كتاب مناقب ضد الخلافة وفضائل الأتراك. كتاب الناشئ والمتلاشي. كتاب النجم وجوابه. كتاب النرد والشطرنج. كتاب النساء. كتاب الوعيد. كتاب الوكلاء والمتوكلين. كتاب الهدايا. مسائل القرآن. مسائل كتاب المعرفة. معاني القرآن. مقالة في أصول الدين. نظم القرآن. نقض الطب . نوادر الجن .

- منهجه العلمي

انتهج الجاحظُ في كتبه ورسائله أسلوباً بحثيًّا أقلُّ ما يقال فيه إنَّهُ منهجُ بحثٍ علميٍّ مضبوطٌ ودقيقٌ، يبدأ بالشَّك لِيُعْرَضَ على النَّقد، ويمرُّ بالاستقراء على طريق التَّعميم والشُّمول بنزوعٍ واقعيٍّ وعقلانيّ، وسبغ ذلك بصبغة أدبيَّةً جماليَّة، وهذه ميزة قلَّت نظيراتها في التُّراث الإنساني.

1 - الشك :

لم يكتف أبو عثمان بالشَّك أساساً من أسس منهجه في البحث العلميّ بل عَرَضَ لِمَكانة الشَّك وأهمِّيَّته من النَّاحية النَّظريَّة في كثيرٍ من مواضع كتبه، ومن أهم ما قاله في ذلك: «واعرف مواضع الشَّك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلَّم الشَّك في المشكوك فيه تعلُّماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرُّف التَّوقُّف ثُمَّ التَّثبُّت ، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه. ثمَّ اعلم أنَّ الشَّكَّ في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يُجمعوا على أنَّ اليقين طبقات في القوَّة والضَّعف».

فهو يراقب الديكة والدجاج والكلاب ليعرف طباعها، ويسأل أرباب الحرف ليتأكد من معلومات الكتب.. قال أرسطو: إن إناث العصافير أطول أعمارًا، وإن ذكورها لا تعيش إلا سنة واحدة... فانتقده الجاحظ بشدة لأنه لم يأت بدليل، ولامه لأنه لم يقل ذلك على وجه التقريب بل على وجه اليقين.

كما هاجم الجاحظ رجال الحديث، لأنهم لا يحكّمون عقولهم فيما يجمعون ويروون، ويقول: ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهانها خفّت المؤنة، ولكن أكثر الروايات مجردة، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان.

فهو لا يقبل ما يرويه الرواة من أن الحجر الأسود كان أبيض اللون واسودَّ من ذنوب البشر، فيقول ساخرًا: "ولماذا لم يعد إلى لونه بعد أن آمن الناس بالإسلام؟!".

والجاحظ يرفض الخرافات كلها ، وينقد من يرويها من العلماء أمثال أبي زيد الأنصاري، فيقول: إن أبا زيد أمين ثقة، لكنه ينقصه النقد لأمثال هذه الأخبار التي يرويها عن السعالي والجن، وكيف يراهم الناس ويتحدثون إليهم ويتزوجونهم وينجبون؟.

وكان الجاحظ يرفض وضع صحابة الرسول –صلى الله عليه وسلم– في مكانة أعلى من البشر، بحيث لا يحق لأحد أن يتعرض لأعمالهم ويقيمها وينقدها، فهو يرى أن من حق المؤرخ أن يتناول أعمالهم بميزان العقل، لأنهم بشر كالبشر يخطئون ويصيبون، وليسوا ملائكة، وإذا كانت صحبتهم للرسول –صلى الله عليه وسلم– تعطيهم حق التوقير فإن هذه الصحبة نفسها تجعل المخطئ منهم موضع لوم شديد؛ لأنه أخطأ رغم صحبته وقربه من الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

ورفض الجاحظ بشدة القول بأن سب الولاة فتنة ولعنهم بدعة، وعجب من أن الذين يقولون بذلك الرأي مجمعون على لعن من قتل مؤمنًا متعمدًا، ثم إذا كان القاتل سلطانًا ظالمًا لم يستحلوا سبه ولا لعنه ولا خلعه، وإن أخاف العلماء وأجاع الفقراء وظلم الضعفاء..، فالجاحظ –كمعتزلي– كان يرى ضرورة الخروج على الإمام الظالم في

حالة وجود إمام عادل، مع الثقة في القدرة على خلع الظالم وإحلال العادل محله، دون إحداث أضرار أكثر مما يتوقع جلبه من المنافع.

وكان الجاحظ يؤكد أن العقل الصحيح أساس من أسس التشريع.

تتبيَّنُ لنا من ذلك مجموعةٌ من النِّقاط المهمَّة التي تفصح عن أصالة الجاحظ وتجلو ملمحاً من ملامح عبقريَّته، فهو لم يرد الشَّكَّ لمحض الشَّك، ولا يقبل أن يكون الشَّكُّ كيفما اتَّفق ولا في كلِّ أمرٍ على حدٍّ سواءٍ ولا بالطريقة ذاتها؛ إن الشَّك الجاحظي بهذا المعنى لا يختلف البتة عن الشَّك المنهجيّ عند الإمام الغزالي والفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت، فكلٌّ منهم أراد الشَّكَّ طلباً للحقيقة؛ الحقيقة الجلية الواضحة، التي لا تقبل تفاوتاً في الدَّرجات.

2 - النـقـد:

إنَّ تتبُّعَ كتب الجاحظ ورسائله يكشفُ لنا عن عقليَّة نقديَّةٍ بارعةٍ؛ نقديَّةٍ بالمعنى الاصطلاحي المنهجي وبالمعنى الشَّائع للانتقاد، فنقده بالمعنى الشَّائع يتجلَّى أكثر ما يتجلَّى في تهكُّمه وتعليقاته السَّاخرة التي لم يسلم منها جانبٌ من جوانب المعرفة ولا مخطئٌ أمامه أو واصلٌ إليه خبره، ومن ذلك مثلاً تهكُّمه بالخليل بن أحمد الفراهيدي من خلال علم العروض الذي قال فيه: «العروض علمٌ مردود، ومذهبٌ مرفوض، وكلام مجهول، يستكدُّ العقول، بمستفعل ومفعول، من غير فائدة ولا محصول».

أما نقده المنهجيُّ فما أكثر ما تجلَّى في كتبه ورسائله في تعامله مع مختلف الموضوعات المعرفيَّة؛ العلميَّة والأدبيَّة، ومن ذلك نقده لعلماء عصره ومحدِّثيه ورواته وفقهائه والعلماء السَّابقين، والشَّواهد على ذلك جدِّ كثيرة، تجعلنا حقًّا في حيرة أمام اختيار واحد منها.

انتقد بعضهم اتجاه علماء الكلام نحو الأمور الطَّبيعية بالعناية والدِّراسة فقال: «لو كان بدلُ النَّظرِ فيهما النَّظرَ في التَّوحيد، وفي نفي التَّشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي التَّعديل والتَّجويد، وفي تصحيح الأخبار، والتَّفضيل بَيْنَ علم الطَّبائع والاختيار، لكان أصوب. فردَّ عليه الجاحظ ناقداً ادعاءه بقوله: العَجَبُ أنَّك عمدت إلى رجالٍ لا صناعة لهم ولا تجارة إلا الدُّعاءُ إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وضع الكتب فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهم لذَّة ولا همٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلاَّ عليه وإليه؛ فحين أرادوا أن يقسِّطوا بَيْنَ الجميع بالحِصص، ويَعْدِلوا بين الكلِّ بإعطاء كلِّ شيءٍ نصيبه، حَتَّى يقع التَّعديلُ شاملاً، والتَّقسيط جامعاً، ويظهر بذلك الخفيُّ من الحكم، والمستور من التَّدبير، اعترضتَ بالتعنُّت والتَّعجُّب، وسطَّرت الكلام، وأطلت الخطب، من غير أن يكون صوَّب رأيك أديبٌ، وشايعك حكيمٌ».

وبنظرةٍ عجلى في آثار الجاحظ « فإنك تراهُ وهو يطلق العنان لقلمه في جلِّ كتبه . يزيِّف الخرافات والتُّرَّهات في عصره وقبل عصره، ويورد عليك نقداته ومباحثاته، فيقطع في نَفْسك أنَّه لو جاء كثيرٌ مثله في عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين من السَّخافات، إذ إنَّ الجاحظ نفسه يقول: ومما لا أكتبه لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كلُّ وقاح أخبار ولذلك ما أكثر ما كان يستفتح الأخبار المغلوطة أو الأسطورية بقوله زعم فلان، وزعموا، ثُمَّ

يُعَقِّبُ بتحليله ونقده «بعقلٍ راجحٍ، ونظرٍ صائبٍ، وأسلوبٍ سهلٍ عَذْبٍ متنوّعٍ دقيقٍ فكهٍ، يَتَتَبَّعُ المعنى ويقلّبُه على وجوهه المختلفة، ولا يزال يولّده حَتَّى لا يترك فيه قولاً لقائل» .

3 – التجريب والمعاينة:

إذا كان النَّقد هو الخطوة اللاحقة على الشَّكِّ فإنَّ المعاينة والتَّجريب هي الخطوةُ المقترنة بالنَّقد والمتلازمة معه، وخاصَّةً في مسائل العلم الطَّبيعي، والجاحظ لم ينس هذه الخطوة ولم يتناسها بل جعلها عماداً لازماً من أعمدة منهجه البحثي، وقد بدا ذلك في اتجاهين؛ أولهما قيامه هو ذاته بالمعاينة والتَّجريب، وثانيهما نقل تجارب أساتذته ومعاصريه.

وقد أجرى الجاحظ كما أخبرنا تجارب ومعايناتٍ كثيرةً للتَّثبُّت من معلومةٍ وصلت إليه، أو لنفي خبرٍ تناهى إلى سمعه ولم يستسغه عقله، والأمثلة على ذلك جدُّ كثيرة نذكر منها تجربته في زراعة شجرة الآراك وقصَّته الطَّويلة معها للتَّأكُّد مما قيل عن تكاثر الذَّرِّ عليها ويصف لنا بُرنيَّةَ زجاجٍ وُضِع فيها عشرون فأراً مع عشرين عقربا، وما فعلته العقارب بالفئران وكذلك عندما أجمع أناس، بينهم طبيبٌ، على أنَّ الجمل إذا نُحِر ومات والتمست خصيته وشقشقته فإنهما لا توجدان، فأرسل إلى جزَّار أن يأتيه بالخصية والشقشقة إذا نحر جملاً، ففعل، فلم يكتف بذلك، فبعث إليه رسولاً يقول: «ليس يشفيني إلا المعاينة» ففعل ودحض هذا الادعاء ولجأ أيضاً إلى تجريب بعض المواد الكيماويَّة في الحيوان ليعلم مبلغ تأثيرها فيها، وليتأكَّد مما قيل في ذلك ومما أورده من تجارب غيره تجربة أستاذه النَّظَّام عندما سقى الحيوانات خمراً ليعرف كيف يؤثِّر الخمر في الحيوان، ولم يكتف بنوعٍ واحدٍ بل جرَّب على عددٍ كبيرٍ من الحيوانات كالإبل والبقر والجواميس والخيل والبراذين والظِّباء والكلاب والسَّنانير والحيَّات وغيرها.

4 - منهجه في معرفة الحلال والحرام :

أما عن منهجه في معرفة الحلال والحرام فيقول : "إنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، وبالسنة المجمع عليها، والعقول الصحيحة، والمقاييس المعينة" رافضًا بذلك أن يكون اتفاق أهل المدينة على شيء دليلاً على حله أو حرمته؛ لأن عظم حق البلدة لا يحل شيئا ولا يحرمه، ولأن أهل المدينة لم يخرجوا من طباع الإنس إلى طبائع الملائكة "وليس كل ما يقولونه حقًا وصوابًا".

فقد كان الجاحظ لسان حال المعتزلة في زمانه، فرفع لواء العقل وجعله الحكم الأعلى في كل شيء، ورفض من أسماهم بالنقليين الذين يلغون عقولهم أمام ما ينقلونه ويحفظونه من نصوص القدماء، سواء من ينقلون علم أرسطو، أو بعض من ينقلون الحديث النبوي.

فإذا كان بعض فلاسفة الشرق والغرب قد وقفوا أمام أرسطو موقف التلميذ المصدق لكل ما يقوله الأستاذ فإن الجاحظ وقف أمام أرسطو عقلا لعقل؛ يقبل منه ما يقبله عقله، ويرد عليه ما يرفضه عقله، حتى إنه كان يسخر منه أحيانا.. ففي كتابه الحيوان يقول الجاحظ عن أرسطو وهو يسميه صاحب المنطق: "وقال صاحب المنطق: ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية "طبقون"، حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أنها تُعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك–، ولم أفهم هذا ولمَ كان ذلك؟!"

ويقول الجاحظ: "زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابيًا عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: فأما السعي فلا تسعى؛ ولكنها تسعى على حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغذى بفم، وأما العض فأنها تعض برأسيها معًا. فإذا هو أكذب البرية".

ثانيا - دراسة فنية لكتاب البيان والتبيين

قبل الخوض في موضوع الكتاب ومنهجه ومميزاته لابد من الإشارة إلى الدوافع التي دفعت الجاحظ إلى تأليفه ثم نعطي مكانته العلمية بعد ذلك.

- دوافع تأليف الكتاب :

الناظر في الكتاب يتبين له أن هناك دوافع تضافرت فأدت إلى تأليفه من جهة وأضفت عليه الخصوصية من جهة أخرى نذكر أهمها :

الدافع الأول : **هو إحساس الجاحظ بضرورة إعطاء البيان العربي الأهمية التي يستحقها، إذ ليس من وسيلة سوى الكتابة عن البيان العربي لتبيين طاقات اللغة العربية في مجال التعبير، وفي مجال إقناع المستمع عن طريق المناظرة والخطابة وهما اللونان الأدبيان اللذان كانا يمارسان في بيئة البصرة .**

يقول الدكتور عز الدين إسماعيل : " أما الأمر الأول فهو أن الجاحظ لم يكن حتى زمن تأليف هذا الكتاب قد اختص البيان العربي ببحث شامل يبين فيه طاقات اللغة العربية في مجال التعبير، وفي مجال إقناع المستمع عن طريق المناظرة والخطابة وهما اللونان الأدبيان اللذان كانا يمارسان في بيئة البصرة، حيث كثرت الخطابة والجدل والمناظرات بين طوائف الملل والنحل المختلفة .. ولما كان أصحاب الكلام قد أخذوا على عاتقهم أن يتصدوا لهؤلاء جميعا فقد حرصوا على إتقان هذين الفنين، بحيث جعلوهما صناعة لها أصولها وقواعدها .. ".

الدافع الثاني : **هو الرّد على الشعوبية، هي حركة ظهرت بوادرها في العصر الأموي، إلا أنها ظهرت للعيان في بدايات العصر العباسي. قال عنها القرطبي: هي حركة «تبغض العرب وتفضل العجم»، وقال الزمخشري في أساس البلاغة في مادة (ش ع ب): «وهم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم». كان الشعوبيون يسمون حركتهم "حركة التسوية " التسوية بين حقوقهم وحقوق العرب. فقد كانوا يعيبون على العرب خطبهم وتقاليدهم في إلقاء تلك الخطب، ومنها الإمساك بالعصا، وقد نص الجاحظ في أكثر من موضع من الكتاب على أنه قد نصّب نفسه مدافعا عن فصاحة العرب، داحضا بذلك اتهامات الشعوبيين.**

وقد نص الجاحظ في أكثر من موضع من كتابه على أنه قد نصب نفسه مدافعا عن فصاحة العرب، داحضا بذلك اتهامات الشعوبيين فقد قال في كتاب العصا في الجزء الثالث من الكتاب : "ونبدأُ على اسم اللَّه بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلَّى باسم التَّسويَة وبمطاعِنهم على خطباء العرب : بأخذ المِخصَرَةِ عند مناقَلَة الكلام ، ومساجَلة الخصومِ بالموزون والمُقَفَّى، والمنثور الذي لم يُقَفَّ، وبالأرجاز عند المَتْح، وعند مُجاثاة الخَصْم، وساعَة المشاوَلَة، وفي نفس المجادَلة والمحاوَرة، وكذلك الأسجاعُ عند المنافرة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خُطَب الحَمَالَة، وفي مقامات

الصُّلح وسَلِّ السخيمة، والقولُ عند المعاقَدِة والمعاهَدة، وتركُ اللّفظ يَجري على سجيَّته وعلى سلامته، حتَّى يخرجَ على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف، ولا التماسِ قافية، ولا تكلّفٍ لوزنٍ، مع الذي عابُوا من الإشارة بالعِصيّ، والاتّكاء على أطراف القِسِيّ، وخدِّ وجه الأرض بها .. ".

- المكانة العلمية للكتاب

يعتبر البيان والتبيين من أواخر مؤلفات الجاحظ، وهو كتاب في اللغة والأدب يتناول فيه موضوعات متفرقة مثل الحديث عن الأنبياء والخطباء والفقهاء والأمراء، والحديث عن البلاغة واللسان والصمت والشعر والخطب والرد على الشعوبية واللحن والحمقى والمجانين ووصايا الأعراب ونوادرهم والزهد، وغير ذلك، ويذكر أن الجاحظ ألف كتابه البيان والتبيين مرتين كما ذكر ياقوت في معظم الأدباء وقد ذكر أن الثانية "أصح وأجود".

يقول المسعودي في مروج الذهب: "وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغُرَر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر عليه لاكتفى به".

ويقول الحسن بن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه: "وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ وهو علامة وقته الجهد وصنع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلاً، ثم ما ادعى إحاطة بهذا الفن لكثرته وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل".

قال الجاحظ وهو يحكي عن قيمة بعض كتبه ومنها البيان والتبيين: " أهديت إلى محمد بن عبد الملك كتاب (الحيوان) ، فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديت كتاب (البيان والتبيين) إلى أحمد بن أبي دواد ، فأعطاني كذلك، وأهديت كتاب (الزرع والنخل) إلى إبراهيم المصولي فأعطاني مثلها، فرجعت إلى البصرة، ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تحديد ، ولا إلى تسميد".

ولهذا يعد كتاب البيان والتبيين أحد أهم الكتب التي ألفها الجاحظ والتي تعتبر عمدة الباحثين والنقاد، فقد اعتمد عليه كبار القدماء الذين جاءوا من بعده، مثل ابن قتيبة في عيون الأخبار، والمبرد في الكامل، وابن عند ربه في العقد الفريد .. وغيرهم، حتى جعله ابن خلدون واحدا من أركان الأدب الأربعة: أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي والبيان والتبيين للجاحظ .

يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله تعالى في مقدمته الشهيرة : " وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي : أدب الكتاب : لابن قتيبة، وكتاب الكامل : للمبرد، وكتاب البيان والتبيين : للجاحظ، وكتاب النوادر : لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها".

أما في العصر الحديث فليس هناك باحث في أي جانب من جوانب التراث العربي لم يستغن بهذا الكتاب، ويرجع هذا إلى ما يحتوي عليه الكتاب من ثروة هائلة ومتنوعة من التراث العربي، وهكذا يصبح ما عيب على الجاحظ سببا في إثراء العقول التي تبغي التزود من معين التراث العربي.

ونظرا لأهمية الكتاب فقد اعتني بطبعه وشرحه وتحقيقه من ذلك:

. في المطبعة العلمية في مصر سنة (1311هـ) بعناية الأستاذ حسن أفندي الفاكهاني ، ثم الشيخ محمد الزهري الغمراوي في مجلدين .

. وطبع مع شرح غريب ألفاظه لحسن الفاكهاني والشيخ الزهري الغمراوي – الجزء الاول بالمطبعة العلمية 1311 والجزء الثاني 3 / 1312 – وجزء 3 بمطبعة الجمالية 1333 وقف على طبعه محب الدين الخطيب المحرر بجريدة المؤيد وعمل له فهارس – وطبع منتخبات من البيان والتبيين باعتناء مكتبة الرغائب بمصر 1328 ص 80 وفي مجموعة رقم 12 .

. في مصر سنة (1345هـ) ثم طبع سنة (1351هـ) بعناية الأستاذ حسن السندوبي في ثلاث مجلدات. ثم أعيد طبعه عدة مرات منها : الطبعة الرابعة سنة (1395هـ) وهي أحسن طبعاته .

. في مصر سنة (1367هـ) بتحقيق وشرح الشيخ عبد السلام محمد هارون ، أربعة أجزاء في مجلدين.

. في بيروت في المطبعة التعاونية اللبنانية سنة (1968م) نشر الشركة اللبنانية للكتاب ، بعناية المحامي فوزي عطوي في مجلد.

- علاقة عنوان الكتاب بمضمونه

إن المتمعن في البيان والتبين يدرك أن عنوانه مطابق لمضمونه ونفهم هذا من تركيز صاحبه على وظيفة الفهم والإفهام، التي تجمع بين وظيفة الطرفين الأساسيين، المتكلم والذي يمثل وظيفة البيان والسامع الذي يمثل وظيفة التبيين.

وعليه يمكن القول بأن للكتاب موضوعا رئيسا يسيطر عليه إلى حدّ بعيد وهو الذي يوجه الجاحظ إلى اختيار مختاراته، وإن كثرت هذه المختارات بحيث تجعل البحث في الموضوع الرئيس مشتتا؛ وهذا الموضوع الرئيس هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون ، وكما مارسها عمليا علماء الكلام ومن بينهم الجاحظ.

أي أنه يسعى من خلال الكتاب إلى تفحص أسرار البيان اللغوي وتحليل قدرات اللغة العربية القريبة والبعيدة ووجوه تصريفها طبق غايات المستعمل ومقاصده، و ليس كونه مجرد مختارات من الشعر والقصة والخطابة والحديث والقرآن .. .

ولهذا أجمع النقاد والدارسون قديما وحديث، أعداء وأنصارا، على أن البيان والتبيين هو قطب التأليف الأدبي عند الجاحظ ومعدن تفكيره البلاغيّ وملاحظاته البيانية، فقد تحدث الجاحظ تحت عناوين ثلاثة: البيان والبلاغة والخطابة عن قضية واحدة هي الكلام الجيد، سواء كان خطبة أم جدلاّ، أم حوارا أم قصصا .. .

ومن هنا نجد أن جهد الجاحظ تركز في البيان والتبيين على العلم بتلك الكيفيات والهيئات وتفحص أشكال الخطاب وصوره طبق ما يحيط به من ملابسات وما يتنزل فيه من أوضاع فسطر للبلاغة نهجا وضبط حقل اهتمامها باعتبارها علما بطرق القول وأفانين التعبير تقوم عليه شرعية وجودها في شجرة علوم اللسان.

كما يلاحظ على البيان والتبيين أن الجاحظ لم يقتصر على الأدب بل تعداه إلى الأديب نفسه فدرسه بالتفصيل وتحدث عن مميزات التي يجب أن يتميز بها أثناء الكلام، وهي كلها سمات تجعل المتكلم أكثر تأثيرا في المتلقي .

ومن اهتمام الجاحظ بتوضيح حقيقة البيان؛ ولما يتميز به من سعة الأفق فقد كان لا يميز بين الأدباء على أساس مذهبي أو ديني أو حتى عرقي، فكثيرا ما كان يترجم لبعض علماء الخوارج وخطبائهم، مادحا تارة ومكبرا تارة أخرى، لأن الذي يهمه هو المادة التي تصلح لتقرير ما يريده، ونذكر مثلا في هذا :

بين الكميت والطرماح :

قال أبو عثمان الجاحظ: ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح، وكان الكميت عدنانيا عصبيا، وكان الطرماح قحطانيا عصبيا، وكان الكميت شيعيا من الغالية، وكان الطرماح خارجيا من الصفرية، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض، ولا شيء مما تدعو الخصال إليه ولم ير الناس مثلهما إلا ما ذكروا من حال عبد الله بن يزيد الإباضي، وهشام بن الحكم الرافضي، فإنهما صار إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة.

وبهذا النقل الواسع لتقرير حقيقة البيان عند الجاحظ تميز الكتاب بالمادة الوافرة التي ربما يراها القارئ في بعض الأحيان غير متناسقة فيما بينها، ويغيب عنه موضوع الكتاب الرئيسي، لكن الجاحظ لم يراع هذا لجانب مراعاته لمضمون الكتاب والهدف الرئيسي المتوخى منه، وبذلك نراه ينقل من العادات والتقاليد التي كانت تحكم المجتمع الإسلامي آنذاك والتي كان للجاحظ من معرفتها حظا وافرا ، من ذلك:

كل حرفة وتمامها! :

وقال إبراهيم بن هانئ: " من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا بعيد مدى الصوت، ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء، ومن تمام آلة المغنّي أن يكون ناره البرذون، براق الثياب، عظيم الكبر، سيء الخلق، ومن تمام آلة الخمّار أن يكون ذمّيا، ويكون اسمه أذين أو شلوما، أو مازيار، أو أزدانقاذار، أو ميشا، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق، ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا ويكون الداعي إلى الله صوفيا، ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع، عظيم الرأس ولذلك قال ابن سنان الجديدي لراشد بن سلمة الهذلي: "ما أنت بعظيم الرأس، ولا ثقيل السمع، فتكون سيّدا، ولا بأرسخ فتكون فارسا".

يقول الجاحظ عن مهمة البيان والتبيين التي خصها بهذا الكتاب والتي ساق لها الحجج والبراهين الكثيرة والمختلفة : " وكلّما كانت الدَّلالة أوضَحَ وأفْصَح، وكانت الإشارةُ أبيَنَ وأنْوَر، كان أنفَعَ وأنْجَع، والدِّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفيّ هو البيانُ الذي سمِعْتَ اللَّه عزّ وجلّ يمدحُه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه، بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم، والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته، ويَهجُم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ، ومن أيّ جنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأيّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع".

وعلى الجملة فقد نقل الجاحظ موضوع الأدب من معناه الضيق المحدود إلى معناه الواسع، أو نقول إلى أوسع معنى، فجعله شاملا لكل شيء، جعله الحياة كلها فالحياة عنده هي مادته وهى موضوعه، فكان الأدب في رأيه هو الحياة نفسها، أو تعبيرا عنها، مرة تصويرا لها، ومرة نقدا وتوجيها، وكذلك ذهب إلى أن الأدب لا بد من أ يعمق فهمنا للحياة، بل يطلعنا لا على عالم الرؤية الخارجية فحسب؛ بل على العالم الداخلي للفكر والشعور، كذلك فالعمل الأدبي عنده يرتاد بنا الحياة، ويخلق بيننا وبينها علاقات من الفهم والمعرفة وهي للغاية التي تسعى لها الإنسانية في نشاطها المستمر.

- خطة الكتاب وموضوعاته

كما ذكرنا فإن لكتاب البيان والتبيين موضوع وفكرة رئيسية تسيطر عليه من أوله إلى آخره، وهذا الشيء جعل الجاحظ يختار منهجه وخطته حسبما يمليه عليه المحور الأساسي والمتوخى من الكتاب، وبهذا سيقت الشواهد الكثير لتتماشى مع هذا الغرض الذي من أجله ألف الجاحظ البيان والتبيين .

كان أول شيء بدأ به الجاحظ في خطة الكتاب ومنهجه هو الاستعاذة من العي وساق الأشعار في ذمه وحكاية موسى عليه السلام في طلبه من الله تعالى أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله.

ثم تحدث بعدها عن نعمة فصاحة اللسان والعي ورداءته، وعاب التشدق والتقعر والتقعيب وفضَّله على العيّ المتزيد والحصر المتكلف، واستطرد من ذلك إلى فصاحة وائل بن العطاء شيخ المعتزلة ولثغته في الراء، وأنه كان يقول القمح بدل البر وجره ذلك إلى الكلام في أن البر أفصح أو القمح.

وانتقل بعدها بشيء من الاستطراد إلى الحديث عن اختلاف اللغة عن العرب في استعمال الألفاظ فقبيلة تستعمل غرفة وأخرى عِلّية وهكذا، ثم رجع إلى واصل بن عطاء وبشار وما كان بينهما، وذكر قصائد في مدح المعتزلة وإذا كان واصل ألثغ، فقد عقب ذلك بالكلام على اللثغة والحروف التي تدخلها اللثغة والتي لا تدخلها، حتى إذا اقترب من الخطابة تحدث عن عيوب اللسان عموما من فأفأة وتمتمة، ثم ما يعرض للخطيب من نحنحة وسلعة، مشيرا في ذلك إلى أشهر الخطباء والبلغاء سواء من اشتهر بسلامة النطق أو بعيب فيه، حتى جره ذلك للكلام عن الصفير الذي يخرج من موضع الثنايا فتكلم عن الأسنان وعلاقتها بالخطابة والجدال في أن سقوط الأسنان كلها أقل عيبا للخطيب أو سقوط بعضها .. وقد أسلمه ذلك للكلام عن اللكنة وعد قوم من اللكناء.

ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن البيان والبلاغة، فيتحدث عن البلاغة في الشعر وفي اللسان وفي الصمت وفي الكلام المسجع مقدما نماذج كثيرة من الحديث الشريف والخطب والحكم والألغاز، ثم عاد إلى الخطباء والبلغاء وبيان قبائلهم وأنسابهم، وبابا في أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان .

ثم ذهب للدفاع عن فصاحة العرب وخطبائهم ضد اتهامات الشعوبية وذلك في كتاب العصا، ثم تجده بعدها يتكلم عن الزهد وعن النساك وعن كلامهم وأخلاقهم ومواعظهم، ثم الحديث في دعاء الصالحين والسلف المتقدمين، ودعاء الأعراب، ثم مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم .

ولا يفوت الجاحظ في كل هذا فكاهته التي عرفت عنه، وهي تبدو جلية في أثناء حديثه عن نوادر الحمقى والمجانين.

فكانت خطة الكتاب ومنهجه وإن لم تكن متسلسلة ومدروسة دراسة منهجية ومنطقية وعلمية كما هو اليوم فلا شك أنه يصب رغم ذلك في تقرير مادة الفصاحة والبلاغة التي هي زمام البيان في اللسان العربي.

- ما أُخذ عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين

من العيوب التي وجهها النقاد لكتاب الجاحظ البيان والتبيين هو الفوضى وعدم الانضباط وغياب التنظيم، مما أدى إلى تشتت المادة في الكتاب، وبالتالي تشتتها في ذهن القارئ واضطرابها وهذا الذي أدى به إلى التكرار. فمثلا أنه يعيد في مطلع الجزء الثاني من الكتاب بأن يرد على الشعوبية بعد الفراغ من الإشارة إلى كلام رسول الله والسلف الصالح ، فإذا به يستطرد ولا يذكر هذا الموضوع إلا في الجزء الثالث من الكتاب .

ومنها أنه يأتي بالخبر في موضعه ، فإذا به يورده هو نفسه في مكان آخر دون أن تكون هناك ضرورة تقتضي ذلك ، بخاصة أنه يكون قد أورده وشيكا ، ومثال ذلك ما ذكره في باب " أن يقول كل إنسان على قدر خلقه وطبعه " ، فذكر عن الزُّهريّ عندما سئل : ما الزُّهد في الدنيا؟ قال : قال: ألاّ يغلِبَ الحرام صَبْرَك، ولا الحلالُ شُكرَك " . فقد كرر هذا القول عينه في الباب نفسه بعد ذلك دون أن تكون هناك ضرورة لهذا التكرار .

وإذا كان قول الزهري ينصب على تعريف الزهد ، فإننا نتوقع أن يستشهد الجاحظ بهذا القول في باب الزهد في الجزء الثالث ، وهذا ما حدث حقا ، وقد كان من الأفضل أن يحتفظ الجاحظ بهذا الخبر ليضعه في باب الزهد ولكن الاستطراد قد أوقعه في هذا التكرار .

وهناك خبر آخر روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء ذكره في الجزء الثاني ثم تكرر مرة أخرى في الجزء الثالث وإن كان الخبر يخدم كلتا المناسبتين اللتين ورد فيهما ...

فالطابع الاستطرادي لدى الجاحظ أدى به إلى عدم التقيد بنظام يترسمه ، ولا بمنهج يلتزمه ، يبدأ الكلام في قضية ثم يدعها أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف حتى ليصعب الاهتداء في جنبات مؤلفه إلى الفكرة والرأي لمن يبحث عنهما ، وكان الجاحظ يشعر بذلك ويعتذر عنه أحيانا . وإلى هذا يشير أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه الصناعتين بقوله : " ... وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمري كثير الفوائد ، جمّ المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرةٌ في أثنائه ، فهي ضالّة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفّح الكثير " .

يقول أحمد أمين : " وفي كل فصل من الفصول فوضى لا تضبط ، واستطراد لا يحد . والحق أن الجاحظ مسئول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي ، فقد جرت على منواله ، وحذت حذوه ، فالمبرد تأثر به في تأليفه ،

والكتب التي ألفت بعد كعيون الأخبار والعقد الفريد فيها شيء من روح الجاحظ ، وإن دخلها شيء من الترتيب والتبويب ... ولما كان كتاب البيان والتبيين أول كتاب ألف في الأدب على هذا النحو كان أثره في الأدب كأثر هؤلاء الذين ذكرنا علومهم ، وكان الجاحظ مسئول عما جاء في الكتب بعده من نقص وعيب ، لأن البيان والتبيين أول كتاب ألف في الأدب على هذا النحو وأثر فيمن جاءوا بعده.. وأوضح شيء من آثار الجاحظ في كتب الأدب إذا قورنت بالعلوم الأخرى الفوضى والمزاح ومجون يصل إلى الفحش أحيانًا".

ومهما يكن من نقد قدمه النقاد للبيان والتبيين فإنه يمكن أن يلتمس للجاحظ عذر في ذلك وهذا للأسباب التالية:

1) . أسلوب التسلسل لم يكن يعرف عند كبار الأدباء في ذلك العصر، فالذي يحكمهم هو السرد الذي يؤدي إلى تشعب الموضوع .

2) . انتشار الأسلوب التلقيني والشفاهي الذي يؤدي إلى الاستطراد والسرد .

3) . البحث عن نماذج من التراث العربي لتدعيم كل جانب من جوانب ما يقررونه فيستدعي التشعب والاسترداد وعدم التسلسل وخاصة في بداية الأمر ، وهذا ما جعل الجاحظ يستقصي سبل القول وتصاريف للتدليل ولاكتشاف سرّ صناعة الكلام .

4) . الرصيد الهائل الذي امتاز به الجاحظ جعل المادة تنصب انصبابا في أثناء تأليفه للكتاب دون أن يملك وقفها .

وخلاصة القول نجملها في النقاط التالية:

. مكانة الجاحظ العلمية وما امتاز به من موسوعية علمية أثرت المكتبة الإسلامية بكتب كثيرة وقيمة ومنها البيان والتبيين .

. أن كتاب البيان والتبيين كان من أواخر الكتب ألفها الجاحظ ، والذي يعتبر عصارة ما كتبه الجاحظ في البيان وإن كانت كتبه الأخرى لها مكانة كبيرة في الميدان ذاته .

. أن كتاب البيان والتبيين من أهم الكتب في البلاغة وعلم البيان ولا يستغني عنه باحث .

. كما أنه قد طابق عنوانه لمضمونه ، فكانت فكرته الأساسية تدور حول وظيفة البيان وأهميته ، وهو الغرض الذي من أجله ألف الجاحظ الكتاب ، ونفهم هذا من تركيز صاحبه على وظيفة الفهم والإفهام ، التي تجمع بين وظيفة الطرفين الأساسيين ، المتكلم والذي يمثل وظيفة البيان والسامع الذي يمثل وظيفة التبيين .

. أن كتاب البيان والتبيين رغم حسن سبكه ودقة صنعه إلا أنه لم يخلو من عيوب ومآخذ ومنها ما ذكرناه.

. يمكن أن نلتمس العذر للجاحظ فيما أخذ عليه وذلك أن القضية مرتبطة في عصره على الحفظ والتلقين والسرد، ولم تكن هذه المنهجيات موجودة في عصره ومن جاء بعده استفاد منه وحسن من منهجيته، وقد ركز عن الغاية الأساسية من الكتاب وهي بيان الفهم والإفهام ما جعله يستطرد في تقصي النماذج بالقدر الممكن.

قراءة في كتاب الكامل للمبرد

- تمهيد

كتاب الكامل المسمى "الكامل في اللغة والأدب" للمبرد من أهم مصادر اللغة والأدب العربي، له منزلة كبيرة، وقيمة علمية بين مصادر اللغة والأدب العربي، والكتاب عبارة عن مختارات يسّرها المبرد وذللها لطلاب الأدب واللغة، فأورد النص ثم اتبعه بشروح لغوية ونحويه مستشهدا في ثنايا شرحه بروائع الشعر والنثر، مشيرا إلى كثير من المسائل اللغوية والنحوية والأدبية والبلاغية والنقدية والتاريخية، حتى غدا "الكامل" موسوعة جمعت معارف شتى وحوت مواد وفيرة، وأثارت قضايا فكرية كثيرة.

- التعريف بصاحب الكتاب

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الملقب بالمبرَّد، وقد اختلف العلماء في سبب تلقيبه بذلك، فالذي ذكره الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب الألقاب أنه قال: سئل المبرد: لم لقبت بهذا اللقب؟ فقال: كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبني للمنادمة والمذاكرة، فكرهت الذهاب إليه، فدخلت إلى أبي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي يطلبني، فقال لي أبو حاتم: ادخل في هذا، يعني غلاف مزملة فارغا، فدخلت فيه وغطى رأسه، ثم خرج إلى الرسول وقال: ليس هو عندي، فقال: أخبرت أنه دخل إليك، فقال: ادخل للدار وفتشها، فدخل فطاف كل موضع في الدار ولم يفطن لغلاف المزملة، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفق وينادي على المزملة: المبرد المبرد، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به، وقيل إن الذي لقبه بهذا اللقب شيخه أبو عثمان المازني، وقيل غير ذلك. وذكر في موضع آخر أنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام، سأل المبرد عن دقيقه وعويصه، فأجابه بأحسن جواب، فقال له: قم فأنت المبرِّد – بكسر الراء– أي المثبت للحق، فغيره الكوفيون وفتحوا الراء.

ولهذا اختلف في لقبه الذي اشتهر به، منهم من ضبطه بفتح الراء مثل ما روي عن ابن عبد ربه، و ادعى أنه لم يختر في شعراء كتاب «الروضة» إلا أبردها، والسيرافي يصحح كسر الراء، ويقول إنه المتثبت في الحق، و كان الشيخ محمد محمود الشنقيطي، ينشد:

و الكسر في راء المبرد واجب وبغير هذا ينطق الجهلاء

ولد المبرد بالبصرة يوم الإثنين، ليلة 10 من ذي الحجة، سنة 210 هـ – 825 م، وقد طلب العلم صغيرًا، تلقى النحو واللغة على مشايخ البصرة، حتى صار إماماً في النحو واللغة، وإليه انتهى علم العربية في عصره، يقول ياقوت الحموي في هذا الصدد: "كان إمام العربية ببغداد، وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجَرْميّ والمازني، وكان حسن المحاضرة فصيحا بليغا مليح الأخبار ثقة فيما يرويه، كثير النوادر، فيه ظرافة ولباقة، وكان الإمام إسماعيل القاضي يقول: ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه".

قال عنه ابن جني:"يعد جبلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا، وهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها".

وقال الأزهري: "كان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه".

وذكره البغدادي فقال: "وكان عالما فاضلا، موثوقا به في الرواية، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر".

له مؤلفات نافعة في الأدب، منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل ونذكر منها: كتاب الكامل، وكتاب الروضة، والمقتضب، وكتاب الاشتقاق، وكتاب الأنواء والأزمنة، وكتاب القوافي، وكتاب الخط والهجاء، وكتاب المدخل إلى كتاب سيبويه، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب المذكر والمؤنث، وكتاب قواعد الشعر، وكتاب إعراب القرآن، وغيرها.

وتوفي ببغداد يوم الإثنين، شهر شوال، وقيل في ذي القعدة سنة 286هـ – 899م، ودفن بمقبرة باب الكوفة، في دار اشتريت له.

- القيمة العلمية للكتاب

يعد كتاب الكامل مصدرا وأصلاً من أصول الأدب واللغة، وقد أشار لذلك ابن خلدون في مقدمته، حيث قال: "سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن – الأدب منظومه ومنثوره – وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكتاب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها".

وللقيمة العلمية للكتاب فقد أقبل عليه العلماء وطلاب العلم قراءة وإقراء، قال القاضي الفاضل: "طالعته سبعين مرة، وكل مرة أزداد منه فوائد"، ومنهم من شرحه ومنهم من علق عليه، كما فعل سيد المرصفي حيث شرحه في ثمانية أجزاء كبيرة بعنوان "رغبة الأمل في شرح الكامل"، وللكتاب شروح أخرى غير هذا الشرح، منها:

– شرح أبي الوليد الوقشي هشام بن أحمد، الذي سمى شرحه بـ"نكت الكامل".

– وشرح ابن السيد البطليوسي، المسمى "القرط على الكامل".

– ونبه على أغلاطه الإمام علي بن حمزة اللغوي البصري في كتابه "التنبيهات على أغاليط الرواة".

– وممن علق عليه الإمامان مغلطاي بن قليج وقُطْلُوبُغا.

– ومن احتذاه في التأليف محمد بن جعفر أبو الفتح المراغي في كتابه "النهجة".

– ومن عرف بإقرائه أبو الحسن الدباج علي بن جابر الإشبيلي.

والكتاب من أواخر ما كتب المبرد، ويقع الكتاب في أربعة أجزاء، وكل جزء يضم بين دفتيه أشكالا مختلفة من الثقافة العربية والأدبية والإخبارية والتاريخية واللغوية والنحوية والقرآنية، وقد طُبع مرات عديدة، منها طبعة المستشرق وليم رايت في ليزبج في عشرة أجزاء بين أعوام (1864–1874)، وطبعة القسطنطينية 1869، وطبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، حقق منها الدكتور زكي مبارك جزءاً، وأتمها العلامة الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر رحمه الله، ثم صنع فهارسها الأستاذ سيد كيلاني 1933، وطبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة حققها الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم والأستاذ السيد شحاته 1956، وطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، بتحقيق د. محمد الدالي. 1986، وطبعة بتحقيق عبد الحميد هنداوي، طبعتها وزارة الأوقاف السعودية عام 1998.

فالكتاب يعتبر من أهم الكتب التي ألفها المبرد، فقد حوى طائفة كبيرة من مختار الشعر والنثر والأخبار، وفيه الكثير من التفسيرات اللغوية، والآراء النحوية، والفتات النقدية، قال عنه أبو الفرج المعافى بن زكريا في كتابه (الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي): "وعمل أبو العباس محمد بن يزيد النحوي كتابه الذي سماه «الكامل» وضمنه أخبارا وقصصا لا إسناد لكثير منها، وأودعه من اشتقاق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها ما يأتي مثله به، لسعة علمه وقوة فهمه ولطيف فكرته، وصفاء قريحته، ومن جلي النحو والإعراب وغامضها ما يقل وجود من يسد فيه مسده".

- من دوافع التأليف

نستطيع من خلال حياة المبرد، وما كتبه في مؤلفاته – ومنها كتابه الكامل – أن نستنتج الدوافع التي دفعت به لتأليف هذا الكتاب، وهي:

1 – بيئته العلمية: المبرّد عاش في القرن الثالث الهجري، وعاصر كثيرًا من الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بالعلم والعلماء، وساهموا في إرساء دعائم نهضة حضارية عظيمة في مختلفة العلوم والفنون، بذلك انفتحت الحضارة العربية على كل العلوم والثقافات، وظهرت ألوان من العلوم والفنون لم تألفها العرب من قبل، ومنها الدراسات اللغوية والأدبية المختلفة، وبهذا تشعبت معارف المبرد، وتنوعت ثقافاته لتشمل العديد من تلك العلوم والفنون، وإن غلبت عليه العلوم البلاغية والنقدية والنحوية، فإن ذلك ربما كان يرجع إلى غيرته الشديدة على قوميته العربية ولغتها وآدابها.

2 – إمامته اللغوية: يعتبر المبرد من أواخر أئمة المدرسة البصرية لتأثره الكبير بسيبويه والمازني، ما جعله حاملا للنحو وممثلا لمنهج البصريين في هذا، فبعد وفاة "المازني" صار المبرد زعيم النحويين بلا منازع وإمام عصره في الأدب واللغة من بعد شيخه، فأقبل عليه الدارسون من كل حدب وصوب، وصار بيته كعبة لطلاب العلم ورواد المعرفة من كل مكان، ومنتدى للوجهاء والعظماء والأعيان.

3 – معايشته الأدبية: انتقل المبرد من البصرة إلى بغداد وسامراء فالتقى بالأدباء سواء في حلقات درسه أو في مجالس الخلفاء والأمراء والعلماء، وفي وسطهم صراع حول قضايا الأدب والنقد وما كان يدور بين القديم والمحدث، ثم ما دار حول المحدثين من النقد، كما كان حول أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وغيرهم

وبالتالي تنازع في نفسه منهجان هما، المنهج النحوي اللغوي، الذي عاشه طيلة فترته وهو بالبصرة، والمنهج النقدي الأدبي الذي عاشه في مرحلته المتأخرة ببغداد، بهذا امتزج عنده الأدب باللغة، وعايش الصراع في القضايا اللغوية والقضايا الأدبية، التي كانت مطروحة في زمانه، فأنتج كل ذلك كتابه الكامل الذي أراد أن يجمع فيه خلاصة رأيه وما توصل إليه في اللغة والأدب، فوسم الكتاب بذلك.

- التطابق بين عنوان الكتاب ومضمونه:

أوضح المبرد عن موضوع كتابه ومنهجه في أول الكتاب، بقوله: "هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة، والنية فيه أن

نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافيًا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً، وبالله التوفيق".

فالكتاب عبارة عن موسوعة لغوية ونحوية ونقدية، اتبع فيها طريقة إيراد النصوص وتفسيرها وشرحها وينقد الآراء حولها، فهو يورد النص في البداية ثم يشرع في شرحه لغويا ونحويا ويستشهد لصحة ما يقول بنصوص القرآن الكريم، ونصوص السنة النبوية، وروائع الشعر، وغرر النثر؛ مثل الحكم والنوادر والنكت والأمثال وغيرها، ويظهر من خلال الكتاب أن هدفه تعليم القارئ وتوجهه إلى ما يعتقد صوابه، فاتخذ الكتاب صفة تعليمية، وهذا واضح من بعض تعبيراته في العديد من المواضع، منها: "يا هذا" و"يا فتى" و وفي بعض المواطن "فعلى هذا فقس" أو "فقس الأمور"، ويستخدم المبرد ضمير المخاطب، ويطرح الأسئلة ويتبعها بالإجابة عنها، وبالتالي فواقع الكتاب يشهد أنه يهدف إلى التعليم وتقرير الرأي، فهو أشبه بمحاضرات ألقيت على تلاميذه ومريديه من أجل التبصر والعلم وعرض الرأي في المسألة، ولذا ضمنها معالجة لبعض القضايا الأدبية والنقدية التي كانت مطروحة في زمانه، مثل قضية اللفظ والمعنى، والقديم والجديد، والسرقات الشعرية والأدبية، والشعر والخطابة.

فالخلاصة أن الكتاب اختيارات من مصادر النصوص الأدبية جمعها المؤلف لسعة علمه ومعرفته وقوة اطلاعه على فنون الأدب واللغة، ثم حرص على تقديمها مشروحة ومفسرة ومزودة بالمسائل اللغوية والقضايا الأدبية، وبهذه الشاكلة أصبح كتابا أدبيا ولغويا ونحويا ونقديا، فاكتمل بذلك وأصبح شاملا في موضوعه، وبهذا تطابق العنوان مع المضمون، ومن هنا وسمه بـ: الكامل في اللغة والأدب"، فقد جمع من كل فن بطرف، فهو بحق ركن أساسي من كتب الأدب واللغة، لما تميز به من أسلوب جامع بينهما، مدللا بذلك على عمق ثقافته بالعلوم العربية.

- مضمون الكتاب ومنهجه:

الكتاب يظهر مضمونه من عنوانه، بأنه يبحث في علوم اللغة والأدب وقضاياهما، فهو من أمتع كتب العربية، يثقف النفس، ويهذب الروح، ويصقل العقل، ويوسع الأفق، وينمي في الإنسان ملكة حب المعرفة.

وقد رتبه صاحبه على أبواب مختلفة ومتفرقة، بلغت تسعة وخمسين بابا؛ صدره بباب في الكلام عن قوله – صلى الله عليه وسلم – للأنصار:«إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع»، وختمه بباب عنوانه: من متنخل طريف الشعر وذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون.

وتقسيم المبرد كتابه إلى أبواب لم يكن على نظام معين أو نسق مرتب – فيما يظهر– يقول الدكتور محمد أحمد الدّالي:"وعلى أن المبرد كسر كتابه على أبواب فالظاهر أن هذه الأبواب لم توضع فيه على نسق أو نظام، ولم يستقل أيّ منها بفن واحد، ولا أستثني البابين اللذين عقد أولهما لـ"بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين من بعدهم"، وثانيهما لـ"أخبار الخوارج"، فقد وضعت الأخبار والمختارات فيهما على نسق أو نظام يؤلف بينها غير فكرة الباب العامة".

ولعل هذا الترتيب الذي لم يكن سياقه منظماً كان يقصد إليه قصداً في كتب الأدب تجنباً لإملال السامع وراحة لذهن القارئ، بيد أن هذا التقسيم حوى من الفوائد والآداب ما جعل هذا الكتاب متميزاً في بابه، وركناً من أركان الأدب وأصلاً من أصوله، وقد تضمن ما يلي:

1 - المختارات الأدبية

كتاب الكامل حمل مختارات للمجموعة هائلة من النصوص المفتاحية، منها ينطلق المبرد في شرحه وتفسيره، وعرضه للقضايا النحوية والصرفية والبلاغية والأدبية والنقدية، وهي كالتالي:

– ضم الكتاب قدرا كبيرا من النصوص القرآنية المنتخبة من أغلب سور القرآن الكريم.

– ضم الكتاب عددا كبيرا من النصوص النبوية الشريفة.

– اهتم بالشعر والشعراء فأورد الكثير من أخبارهم وأشعارهم في فنون مختلفة.

– ضم الكتاب خطب العرب في مختلف العصور حتى العصر الذي عاش فيه، خطب من جاهلية، وخطب الرسول عليه الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدين وملوك بني أمية، وزعماء الخوارج، وبعض ملوك بني العباس، فهو قريب من منهج الجاحظ.

– كما أن الكتاب حوى الأخبار الأدبية والتاريخية والوثائق من نطاق المعرفة الإسلامية والعربية مثل الرسائل والأخبار وأقوال الصحابة، وغيرها.

– احتوى الكتاب على عدد كبير من الأمثال العربية بلغت خمسة وسبعين مثلاً، مع ذكر أصلها والمناسبة التي تقال فيها.

– وعمد المبرد إلى إيراد الكثير من أقوال الحكماء وأخبارهم، حتى إنه جعل فصلاً في ذلك عنوانه: نبذ من أخبار الحكماء.

– تخلل الكتاب مجموعة من النكت والطرائف أوردها المؤلف بين الحين والحين، مما يجعل القارئ يستريح من العناء أو التعب، وينشط إذا مل أو سئم.

2 – القضايا البلاغية

اهتم المبرد في كتابه الكامل بالقضايا البلاغية، ففي الكتاب إشارات بلاغية مهمة؛ فهو يتحدث عن الكناية وأقسامها، والمجاز وأنواعه، والاستعارة وألوانها، والالتفات والتجريد، وأطنب القول في التشبيه، وعقد له باب خاصاً مستقلا في الكامل، وكان أول من خصه بذلك جمع فيه نصوصا قيمة استفاد منها من جاء بعده، حيث بين أن العرب تشبه على أربعة أضرب، فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام، وخص الإيجاز، ويسميه الاختصار، ويقيده بالمفهم، والإطناب ويصفه بالمفخم، وعقب بباب آخر أورد فيه ألواناً من ألفاظ العرب البينة، القريبة، المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف.

3 – القضايا اللغوية

تميز الكتاب بكثرة القضايا اللغوية درسًا وتناولاً واستشهادًا في مختلف صفحات الكتاب، فهو يشرح كل نص شرحًا يتحرى الدقة والعمق والتفريع، فيتطرق للإيضاحات اللغوية، فهو عندما تناول كلمة "تلجلج" الواردة في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري لم يكتف بشرح المفردة؛ وإنما تناول طرق استخدامها عند العرب شعرا ونثرا، وبحث في جذرها اللغوي، وأفرغ كل محفوظاته ليدلل على صحة ما يقول، وقام في ذلك بصنيع مؤلفي المعاجم كالخليل وغيره.

ومن تلك النصوص – أيضا – يهتم بالنحو ويعالج مواضيعه وقضاياه عن طريق تناول موضوع بعينه أو عن طريق الإعراب، فيورد المسائل النحوية في إثر شرح النصوص وذكر قضاياها اللغوية، حتى أنه يتعرض للشروح النحوية أحيانا بنوع من الاستفاضة، مثال ذلك أنه أثناء كلامه على قوله تعالى: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)، تعرض للاستفهام وفرق بين أسمائه وحروفه وأعرب كلمة "أي" وبين الفروق بين أسماء الاستفهام وحروفه، معللا كل ما ذهب إليه باستدلالات وشواهد كثيرة.

فالمبرد يسعى إلى توطيد أركان مدرسة نحوية يكون أساسها القياس اللغوي والمنطقي المعتمد على شواهد لغوية سماعية في الدرجة الأولى، فخالف نتيجة لذلك بعض البصريين، ووافق بعض شيوخ الكوفة.

4- القضايا النقدية

النقد عند المبرد سببه أنه جمع بين منهجين؛ المنهج النحوي الذي التزم فيه السماع والقياس والتعليل، والمنهج النقدي البلاغي الذي شاع في عصره بسبب موجة الاعتزال، ومع ذلك كان نقده عبارة عن انطباع مقتضب على غرار ما كان شائعا في زمانه، فقد يعلق على نص استحسانا أو استهجانا أو رفضا لكنه ليس نقدا بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه اليوم عند النقاد، ومنه على سبيل التمثيل، قوله:"..فهذا أصح معنى وأقرب مأخذا وهكذا .."، ومع هذا الاقتضاب والتلميح النقدي اقترب المبرد من ثلاث قضايا نقدية لا تزال مطروحة في الساحة النقدية إلى يوم الناس هذا، وهي: قضية اللفظ والمعنى، الجديد والقديم، السرقات الأدبية.

ومن كل ما ذكرنا فالكتاب يحوي جوانب كثيرة من علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض إلا أن الصفة الأدبية هي الأبرز باعتبار أن المناقشات اللغوية جميعها جاءت ضمن النصوص المختارة.

- المآخذ على الكتاب

كل كتاب إلا وعليه مآخذ، فالنقص من طبيعة البشر، ويأبى الله أن تكون العصمة لغير كتابه وما صح من سنة نبيه، ورغم جودة الكتاب ودسامة مادته العلمية أخذت علية عدة مآخذ نذكر منها الآتي:

– أن المنهجية التأليفية عند المبرد لم تكن واضحة تماما، بل كانت كثيرا ما يشوبها الاضطراب والابتعاد عن صلب الموضوع وللرجل عذره، فقد كان أسلوب الاستطراد هو المسيطر على فكر المؤلفين في تلك الفترة، ناهيك عن أن الكتاب من أوائل الكتب المؤلفة التي استقت منها الكتب اللاحقة مادتها اللغوية والأدبية.

– ومما يؤخذ على المبرد كذلك عيب الاستطراد؛ إلا أن هذه السمة لم تقتصر على المبرد وحده بل مست جلّ علماء تلك الفترة.

– ومما يؤخذ على المبرد أنه كثيرا ما يروي أخباره دون أسانيد، أو إسناد الأخبار إلى غير قائليها، وعذره في ذلك أن النصوص يستشهد بها في الفصاحة حتى وإن كانت غير مسندة، والمجال يختلف بين الدرس اللغوي والدرس الشرعي في هذا، وأيضا فإن المبرد ثقة في الإسناد كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، واشتهر برواية الأخبار اللغوية والأدبية بغير إسناد.

– أن المبرد أكثر في كتابه من ذكر أخبار الخوارج، وقد اتهم محمد بن أبي حديد شارح نهج البلاغة المبرد بهذه التهمة؛ لكن أبا العباس لم يتعصب للخوارج كطائفة دينية منحرفة الاعتقاد؛ وإنما أورد كلامهم ورسائلهم في الكتاب وكلامهم ككلام غيرهم، فالكاتب عندما يورد كلام امرئ القيس، أو عنترة العبسي، لا يعني هذا تعصبه للجاهلية بل لم يدر في خلده ذلك أصلا.

لهذا نجد المبرد لما رأى أن ذكر الخوارج أتى على جزء عظيم من الكتاب؛ قال: "وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج، ولكن ربما اتصل الشيء بالشيء، والحديث ذو شجون، ويقترح المقترح ما يفسخ به عزم صاحب الكتاب، ويصده عن سننه، ويزيله عن طريقه. ونحن راجعون إن شاء الله إلى ما ابتدأ له هذا الكتاب، فإن مر من أخبار الخوارج شيء مر كما مر غيره؛ ولو نسقناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا خبر نجدة، وأبي فديك، وعمارة الرجل الطويل، وشبيب، ولكان يكون الكتاب للخوارج مخلصاً".

– اختلاط المصطلحات النحوية عنده، فمن خلال ما عرض من مواد نحوية أن الفكر النحوي عنده يظهر مضطربا، وذلك أن الفترة التي ألف فيها الكتاب كانت فترة تشكل للمصطلح النحوي خاصة، والفكر المدرسي النحوي بشكل أعم، يستوي في ذلك نحاة البصرة والكوفة، ولذلك فقد تلحظ خلطا للمصطلحات النحوية الكوفية والبصرية.

ومع كل تلك المآخذ وغيرها يبقى كتاب الكامل في اللغة والأدب من دواوين العربية التي لا يستغنى عنها، كما أشار لذلك ابن خلدون في المقدمة، وعليه اهتم به العلماء قديما وحديثا، فرحم الله المبرد، وجعل كتابه الكامل في سجل حسناته يوم القيامة.